سينما

«لا أرض أخرى» لعدرا وأبراهام

صرخة فلسطينية صادقة وقاسية

أثار «لا أرض أخرى» جدلاً ألمانياً بعد منحه جائزتين من «مهرجان برلين السينمائي» لشدّة ما فيه من حقائق ووقائع يريد الإسرائيلي تزويرها

نديم جرجوره

للعنوان قولٌ يعكس واقعاً، وبوحٌ يُعبِّر عن غضب وانكسار وخيبة، رغم أنّ في يوميّات عيشٍ مقاومةً سليمة، تفشل في تحقيق المُراد منها، لأنّ العدو مُسلّح ومجرم، إنْ كان جندياً في جيش الاحتلال الإسرائيلي، أو مدنياً يُقيم في مستوطنة، ومدنيو المستوطنات أعنف من جنود الاحتلال، غالباً.

«لا أرض أخرى» تعبيرٌ أيضاً عن حقّ فلسطيني غير مُتنازَل عنه إطلاقاً. صرخةٌ مدوّية، وإنْ بسلاسة وهدوء ظاهِرَين، تؤكّد أنّ الفرد الفلسطيني غير متوقّف عن دفاع له عن أرضٍ مُلكٍ له، والأرض جغرافيا وتاريخ وبيئة واجتماع ويوميات عيش وعلاقات.

والعنوان فيلمٌ (2024) للفلسطيني باسل عدرا والإسرائيلي يوفال أبراهام، بالتعاون مع الفلسطيني حمدان بلال والإسرائيلية راحِل تسور، الوحيدة بينهم المتخصّصة بالسينما، إخراجاً وتصويراً وتوليفاً، والأولان صحافيان ناشطان، وبلال ناشطٌ في مجال حقوق الإنسان.

النواة الأساسية للفيلم توثيقٌ مُصوّر في أعوامٍ متتالية، تشهد مواجهة فلسطينية شبه يومية مع الاحتلال الإسرائيلي، الذي يجهد في تحويل «مسافر يطا» (19 قرية فلسطينية صغيرة في محافظة الخليل . جنوبي الضفة الغربية) إلى مركز تدريب عسكري، بأمرٍ من قضاء إسرائيلي. المركز، المستَنِد إلى أمرٍ قضائي إسرائيلي، يعني إزالة القرى كلّياً، في الجغرافيا والاجتماع والناس، وفي مسائل أخرى أيضاً.

أعوام التوثيق البصري تلك سابقةٌ على «7 أكتوبر» (2023). لكنّ التوثيق نفسه يبدو راهناً، إنْ يُقرأ التاريخ الفلسطيني في سياق متكامل، يروي -في جانب منه- محاولات إسرائيلية دائمة لإبادة شعب، وإزالة قرى وبلدات، وتزوير تاريخ، وسرقةِ ثقافةٍ وتراث. أعوامٌ من التوثيق تُلخِّص بعض التاريخ الفلسطيني الراهن، وتفضح بعض التاريخ الإسرائيلي الراهن أيضاً، والتاريخ الأول حاضرٌ والإثباتات متنوّعة، والتاريخ الثاني مفضوحٌ بأكاذيبه وتزويره وافترائه. لذا، مع أنّ الجانب السينمائي فيه غير فنّي وغير مُبهر باشتغال مطلوب، يقول «لا أرض أخرى» إنّ كفاحَ الفلسطينيّ، فرداً وجماعةً، دائمٌ، ما دامت إسرائيل تحتلّ وتُبيد، دائماً.

السينما في «لا أرض أخرى» عادية للغاية، ومع هذا ينال جائزة أفضل فيلم وثائقي في «بانوراما» الدورة الـ 74 (15 . 25 فبراير/ شباط 2024) لـ«مهرجان برلين السينمائي»، وجائزة الجمهور. هاتان الجائزتان، بعد مضمونه التوثيقيّ، كافيتان لإثارة غضب إسرائيل الرسمية، وغضب اللوبي اليهودي الصهيوني المتسلّط على ألمانيا، ما يدفع مسؤولين رسميين فيها إلى إعلان موقفٍ رافض للجائزتين، ومواجهٍ إياهما (ومواجهة المهرجان أيضاً، وتقريع إدارته ولجنة تحكيمه)، خصوصاً أنّ الإسرائيلي يوفال أبراهام غير رحيم، في تصريح له بعد نيل الجائزتين، مع «دولته»، التي يقول فيها واقعاً: إنّها تمنع عن الفلسطيني حقّه في عيشٍ كريم في أرضه وبلده.

والتوثيق، الذي يعتمد وسائل عادية في التصوير، يُصبح شهادة بصرية لا تصنع سينما، بل تُصوّر واقعاً حياتياً، ولا تخترع خيالاً، فالواقع حيٌّ وطبيعيّ، وأفعال المحتلّ الإسرائيلي أسوأ من أنْ يكون خيالاً لشدّة واقعيّته. عامٌ تلو آخر، يُصوّر باسل عدرا ما يفعله إسرائيليون، جنوداً ومدنيي مستوطنات، بأهل «مسافر يطا»، وبعض أهلها أهل له، ووالده «مواطنٌ» شبه دائم على سجون المحتلّ. أمّا يوفال أبراهام، فصحافي يريد فهم الحاصل ميدانياً، فيكون عيناً أخرى تُضيف مشاهداتُها تأكيداً لوحشية إسرائيلية في محو وإبادة وتغييب، لن يكون الردّ على «7 أكتوبر» (طوفان الأقصى) أوّل تمثيلٍ لها ولا آخرها، مع أنّ في الردّ الإسرائيلي هذا وحشية غير مسبوقة. «لا أرض أخرى» . المعروض في «آفاق» الدورة الـ 58 (28 يونيو/ حزيران . 6 يوليو/ تموز 2024) لـ«مهرجان كارلوفي فاري السينمائي الدولي» . وثيقة بصرية تؤرّخ واقعاً وتفاصيل في أعوامٍ متتالية. في مضمونها (الوثيقة البصريّة) بعض انتقادٍ لمسائل يعانيها فلسطينيون وفلسطينيات: تصوير حالة ووضع بعد «زيارة» لأيام قليلة، لكتابة -تصوير تقارير صحافية- إعلامية فقط لا غير، من دون أي فائدة عملية لهم ولهنّ. وأيضاً، وإنْ مواربة، إظهار مأزق الإسرائيلي، الراغب في معاينة وقائع وحقائق، عبر «سخرية» مبطّنة من «حماسته» في دفاعه عن حقّ فلسطيني، إذْ يحاول باسل عدرا تخفيف تلك الحماسة بقول منطقي . واقعي: لا يُمكن تحرير أرضٍ وبلدٍ بعشرة أيام. مع هذا، يُصرّ يوفال أبراهام على مواكبة الحاصل، للكتابة عنه، فإذا به يُصبح أحد صانعي «لا أرض أخرى»، مع أنّ في العنوان ما يشي بأنّ إسرائيلياً، يهودياً و/أو صهيونياً، «مقتنعٌ»، هو أيضاً، بأنْ «لا أرض أخرى» له.

هذا نزاعٌ غير مكتفٍ بعسكر ومستوطنات وقيادات تزوّر حقّاً فلسطينياً، وتحرقه وتجهد في إبادته. لكنّ «لا أرض أخرى» يريد كشفاً آخر لوحشية إسرائيلية في التعامل مع الفلسطيني . الفلسطينية، من دون اهتمام بأي جانب من الجوانب السينمائية. فالتصوير مُتاح، وإنْ بأدوات غير سينمائية، وغزارة الأحداث وغليانها غير محتاجة إلى سينما لتقول وقائع وحقائق، فالتقاط هذه الوقائع والحقائق بواقعيّتها وحقيقتها، كافٍ وحقيقي وصادق ومباشر.

> لا سينما لكنّ التوثيق يستفزّ الإسرائيلي ويفضح جُرمه

«لا أرض أخرى»: خراب تصنعه إسرائيل (الملف الصحافي)

«نحن في الداخل»: خاصٌّ يطاول عاماً موجعاً

قيس قاسم

من دون حاجة إلى توضيح أسباب عودتها إلى طرابلس، بعد غياب 15 عاماً، تضع فرح قاسم (1987) نفسها في شقّة والدها، في تلك المدينة اللبنانية، كأنّها لم تغادر ذلك المكان إلا لساعاتٍ. تقترح على مُصوّرها تيبي شونينغ التعامل مع وجودهما في مكانٍ واحد كما لو أنّهما (أب عجوز وابنته الشابّة) يمضيان حياة سوية لا انقطاع فيها، تفضي في نهاية المطاف إلى افتراق محتوم. والدها، الشاعر مصطفى قاسم، يتماهى بعفوية مع تصوّرها السينمائي، ويتعامل مع وجودها كما لو أنّها لم تغادر منزله يوماً.

شاعر يتلهّى ويستأنس بالكلمات والصُّور الشعرية، ولا يعرف عالماً غيرهما. يتشارك مع أشباهه من أدباء المدينة شغفه الأدبي، ويمضي جُلّ وقته معهم. شعراء في سبعينيات أعمارهم، يتبادلون الكلمات، ويعيدون فيما بينهم صوغ أبيات شعرية يكتبونها، كأنّها تبقيهم أحياء.

تشغل الحوارات بينها وبين والدها المساحة الأكبر من زمن وثائقيّها «نحن في الداخل» (2024)، وعبرها تتكشف وشائج عائلية، تتّسع مديّاتها لتطاول تخوم عوالم إنسانية أوسع، لا تستعجل فرح الكشف عنها. هذا يترك حرية أكبر للتوليف السينمائي للتحرّك، فما تلتقطه الكاميرا من ضيق المساحة . الشقة يفتح التوليف البارع (نوس سكوف ياويبسن) فضاءات أكبر للخروج منها. اجتماعات دورية للشعراء والأدباء في منازلهم، أو في المنتدى الأدبي الذي يلمّ شملهم، ويعتكفون فيه وحدهم في عزلة اختيارية. ورقة ملصقة على بابه، مكتوب فيها «نحن في الداخل»، تشير إلى رغبة في الانكفاء والانسحاب من خارج مأزوم، يقلق أعمارهم التي لم تعد تحتمل أحزاناً ولا أعباءً أكثر. تلتقط فرح ما في تلك العزلة البهية من أفراح عابرة، تلين قسوة مشهد عام يمرّ به لبنان، ويشعر بها كلّ مقيم فيه. شعراء بلغوا من العمر عتيّاً، يتناولون الحلوى رغم إصابة أكثريّتهم بـ«السكّري». يتمازحون ويتجادلون فيما بينهم حول الحداثة الشعرية وضرورتها، بينما يتحفّظ مصطفى قاسم عليها، ويُصرّ على كتابة الشعر المقفّى والموزون، وبغير هذا لا يعترف.

إلى هذا العالم، جاءت ابنته واقتحمته. فرضت نفسها بهدوء عليه. هي الشابّة، المنشغلة بعالمها السينمائي، تأتي إلى الأدب، وتقترب بمحاولاتها الشعرية من نخبةٍ، يؤشّر وجودها إلى حضور ثقافي ومعرفي متأصّل، السياسة تريد تغييبه لتسهل على المنتفعين منها «شيطنة» مدينتهم، ووصمها بـ«التطرّف».

هذا جانب لا تقترب منه فرح، لكنّ سلوك والدها وحواراتها معه، التي تتعمّد مشاكسته بها، إلى جانب تطوّرات دراماتيكية رافقت أحداثاً مسلّحة وتصادمات تشهدها المدينة، تراقبها الكاميرا بحذر عبر نافذة الشقّة؛ هذا كلّه يستنطق مواقفه ورؤياه المنفتحة اجتماعياً، التي لا تخلو تماماً من محافظة تقليدية.

> مشاكسات وتطوّرات دراماتيكية وأحداث مسلّحة وتصادمات

فرح قاسم ووالدها الشاعر مصطفى: «نحن في الداخل» (الملف الصحافي)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أقوالهم

هناك مخرجون يصنعون أفلاماً للجمهور، وآخرون يصنعونها للجمهور ولأنفسهم، كهيتشكوك (Getty) وسبيلبيرغ. هيتشكوك يعرف جيداً الجمهور، ويعرف كيف يغويه ويهيمن عليه. صحيحٌ أنّه لم يصنع سوى أفلام تشويق، لكنّه يضع فيها فلسفته الخاصة، ويمزجها بتجربته النفسية مع الحياة. أفلامه أصلاً أفلامٌ شخصية، لكنّها تبدو كأنّها أفلام تشويق جماهيرية.

مارتن سكورسيزي

كانت أنوك إيميه (Getty) رفيقة دربي وصديقتي. منحتني كُلّ الفرص. قالت لي «نعم» عندما رفضني الآخرون، يوم كنتُ مخرجاً شاباً. بفضلها، وبفضلها وحدها، كنتُ على حافة النجومية. ستظلّ صورتها محفورة إلى الأبد على شاطئ «نورماندي» (حيث صوّرتُ «رجل وامرأة»، 1966). بعد أنْ جعلت العالم كلّه يحلم، ستجعل الملائكة تحلم أيضاً.

كلود لولوش

أفعالهم

Cent Mille Milliards لفرجيل فيرنييه، تمثيل زكريا بوتي و**مينا غاجوفيتش** (فيسبوك): تُعتبر موناكو . بالنسبة إلى جيل «تلفزيون ما بعد الواقع»، الذي نشأ في خيال شريحة اجتماعية من «المتميّزين» . جنة أرضية، ووعداً بحضارة من الملذّات اللانهائية. لكنْ، هناك مخفيّ في هذه الأبراج العظيمة، وخلف النوافذ الملوّنة للسيارات الفاخرة، ووراء أبواب الفيلات.

The Sparrow In The Chimney لرامون زوركر، تمثيل **مارن إيغرت** (Getty): تعيش كارين مع زوجها ماركوس وأطفالهما في منزل طفولتها. تزورها شقيقتها جولي في عيد ميلاد ماركوس. هناك خلافات بينهما، فتُستعاد ذكريات والدتهما المتوفاة. لكنّ المنزل سيضجّ بالحياة تدريجياً بالحياة، إلى أنْ يُدمَّر القديم لجديدٍ مطلوب.

أخبار

◆ يُعرض «ما بعد»، الفيلم القصير الجديد للفلسطينية مها حاج (كتابة وإخراجاً) في الدورة الـ 77 (7 . 17 أغسطس/ آب 2024) لـ«مهرجان لوكارنو السينمائي الدولي». يروي الفيلم (تمثيل محمد بكري وعرين العمري وعامر حليحل) حكاية سليمان ولبنى، اللذين يعيشان في مزرعةٍ منعزلة، ويهتمّان بالأشجار، ويجريان أحاديث ساخنة عن خيارات حياة أطفالهما الخمسة.

◆ تُقام النسخة السادسة من «لقاءات ريف» بين 26 و28 يوليو/ تموز 2024، في منطقة القبيات . عكار (شماليّ لبنان)، التي تتناول «التنوّع البشري . البيولوجي»، مع التوقّف عند «الأوضاع المأسوية التي تعيشها منطقتنا»، خصوصاً «الهجمات ضدّ سكان جنوبيّ لبنان وأراضيه»، و«الإبادة الجماعية والبيئية في فلسطين». أضاف البيان الرسمي أنّ «تنوّع أنظمتنا البيئية يعكس الوضع الحالي في لبنان، كموطن للتنوّع البيولوجي الاستثنائي»، إذْ يحتوي على «عيّنات مستوطنة، كالأرز واللزّاب والشوح الكيليكي والضبع والأفعى اللبنانية». لكنّ هذا النظام البيئي «مُهدَّدٌ من الجوانب كلّها: التغيّر المناخي المتسارع يتفاقم، بسبب التوسّع العمراني غير المنضبط، والحرائق المتعمّدة، والاستغلال المفرط للغابات، والمحاجر، والصيدَين، البرّي والمائي، وعدم معالجة مشاكل مياه الصرف الصحي والنفايات»، فضلاً عن «سيطرة القطاع الخاص على الممتلكات المشتركة». بالطريقة نفسها، «فإنّ التنوّع البشري، الذي يتميّز به لبنان والدول المجاورة، رصيدٌ معنوي هشّ يجب الحفاظ عليه». يُضاف إلى هذا الواقع «التفكّكان الاجتماعي والاقتصادي، والعنف الذي يعانيه لبنانيو جنوبيّ البلد، وفي فلسطين».

◆ أصبح الإعلان الترويجي للحلقة الثانية من «المُجالِد» (2024) لريدلي سكوت (تمثيل بول مِشكال ودنزل واشنطن وكوني نيلسن) الأكثر مُشاهدة بين إعلانات الأفلام التي أنتجتها شركة «باراماونت». كذلك فإنّه تفوّق على نسبة مشاهدة الإعلان الترويجي لـ Top Gun: Maverick، للمخرج جوزف كوزينسكي (2022)، الذي حقّق في 24 ساعة فقط 75 مليون مشاهدة، علماً أنّ الإعلان الترويجي لـ«المُجالِد 2» حقّق 128 مليون مشاهدة في الفترة نفسها.